منصة التمثيل منبر للدعوة

اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود خالق للكون يدبر أموره ويسير حركته. ثم جعل الإنسان الوثني لكل قوة في الكون وكل ظاهرة في الطبيعة إلها أو آلهة. فكان هناك إله البحار وإله العواصف وإله الحرب وإله الصيد وإله الحب وإله الجمال. بل وهناك أيضا إله الآلهة. ومع كثرة الآلهة كثرت الشعائر والطقوس التي حاول بها الإنسان دائما أن يرضي هذه الآلهة ويتقي غضبها.

وفي رأيي أن هذا النوع من الطقوس الذي يعتبره المتخصصون إرهاصا بالفن التمثيلي أو الدرامي. كان أسبق الفنون التي مارسها الإنسان جميعا.

د. حمادة إبراهيم - مصر

الأدب التمثيلي وسيلة للدعوة:

وإذا تابعنا مسيرة التاريخ. وجدنا أن الوثنية القديمة في مصر الفرعونية كانت تقوم على اعتقادات معينة في شكل أساطير مختلفة. ولعل أشهرها أسطورة «إيزوريس». وكان الفرعون نفسه يشترك في تمثيلها مع الكهنة والأمراء وطوائف من الشعب. وكانت هذه الأساطير تعرض داخل المعابد وفي ساحاتها.

وإذا انتقلنا إلى الإغريق. وجدنا أن أدبهم التمثيلي العظيم نشأ أيضا في أحضان عقيدتهم الدينية وفي هياكل المعابد. حيث بدأ هذا الأدب عندهم بالطقوس التي كانت تقام احتفالا بالآلهة المزعومة كإله الخصب. ثم إن أشهر ملاحمهم. بل أشهر ملاحم التاريخ وهما (الإلياذة) و(الأوديسة) اللتان ألهمتا كتابهم المسرحيين أعظم إنتاجهم. هاتان الملحمتان كانتا أيضاً تدوران في إطار

العلاقات بين الآلهة – في زعمهم – والبشر، وبين الآلهة المزعومة بعضها ببعض، كذلك فإن التمثيليات التي أخذت منهما كانت تقوم في معظمها على اعتقادات دينية، من مثل الاعتراف بوجود قوة خارقة تسير العالم وتتحكم في مصائر البشر.

وهكذا كان الارتباط وثيقاً بين المسرح الإغريقي والعقيدة الدينية. وكان للرومان أيضاً أدبهم التمثيلي المعروف. وكان هذا الأدب معالجة جديدة للموضوعات الإغريقية، بل كان أحياناً ترجمة لها، مع صبغه بطابع الرومان وعاداتهم وتقاليدهم.

وحينما ظهرت المسيحية، حاول رجال الدين النصارى في البداية الهجوم على التمثيل الروماني بسبب اختلاف العقيدة من ناحية – وبسبب ابتعاد التمثيل عن القيم الدينية بصفة عامة واتجاهه نحو العبث.

لقد اعتبر النصارى العالم مسرحاً كبيراً يتكون من فصول ثلاثة هي السماء، والأرض، والجحيم. وكان الرهبان والراهبات يقومون بكتابة التمثيليات التي كانت تعبر عن هذه المعاني، ويقوم بتمثيلها رجال الدين أنفسهم داخل الكنائس ، إلى جوار التمثيليات التي كانت تعالج الطقوس الدينية والتعاليم النصرانية أمام الناس.

وحينما زادت أعداد جماهير المشاهدين من ناحية، وانشغال رجال الدين بأعمالهم النوعية – من ناحية أخرى، خرجت الفرق التمثيلية لتعرض أعمالها في الساحات الكبيرة أمام الكنائس. ولعل عناوين التمثيليات الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي مثل تمثيلية (آدم) تؤكد استمرار ارتباط التمثيل بالعقيدة النصرانية.

وفي فترة لاحقة، تكونت فرق للتمثيل عرفت بفرق الأتقياء، وكان أعضاؤها والمؤلفون لها من الشمامسة.

ويتقدم بنا التاريخ، ونصل إلى عصر النهضة الأوروبية، فيظهر الحنين إلى هذا النوع من التمثيليات الدينية، فتعود إلى الظهور مرة أخرى.

■ **كان التمثيل عند الفراعنة والإغريق والرومان والنصارى وسيلة في أيدي رجال الدين لنشر تعاليمهم ووعظ الناس وإرشادهم.**

ثم جاء عصر الكلاسيكية الجديدة وهو واحد من أكثر عصور التمثيل ازدهاراً في العالم، فنجد الحركة التمثيلية تبدأ بتقليد التمثيليات الإغريقية القديمة. وإذا كان التمثيل في عصر الكلاسيكية الجديدة ذا صبغة عالمية وعلمانية، إلا أن ذلك لم يمنع أعظم المؤلفين في ذلك العصر وهم (راسين) و (موليير) و (كورني) من جعل العقيدة النصرانية مادة لبعض تمثيلياتهم.

من كل ما تقدم يتضح لنا أن التمثيل عند الفراعنة والإغريق والرومان والنصارى كان وسيلة في أيدي رجال الدين لنشر تعاليمهم ووعظ الناس وإرشادهم.

التراث العربي والإسلامي مصدر للأدب التمثيلي

أما بالنسبة للعرب والمسلمين، فإن الناظر في تاريخهم وتراثهم الأدبي يجد من العناصر الدرامية والملامح التمثيلية ما كان يمكن أن يمهد لقيام أدب تمثيلي عظيم.

ومن أهم الملامح الدرامية في الجاهلية نذكر الأسواق الأدبية التي كانت مجالاً عظيماً لازدهار فنون الإلقاء والخطابة والمساجلات الشعرية التي تعد إرهاصات للفن التمثيلي لم تستغل.

يأتي بعد ذلك بعض فنون الشعر العربي مثل الفخر والحماسة والهجاء.

والناظر في بعض المعلقات يجد فيها المادة الأولية للعديد من المشاهد الدرامية الرائعة التي لا ينقصها إلا الاستغلال والصياغة الفنية الملائمة.

كذلك من أبرز المظاهر الدرامية في الجاهلية عملية الطواف حول الكعبة وما كان يصاحبها في الماضي من حركات وإيماءات.

وإذا اتجهنا إلى القرآن الكريم، هالنا ما يزخر به من قصص حافلة ثرية، والأمثلة أكثر من أن تحصى، منها قصص آدم عليه السلام، وبداية الخلق، وقابيل وهابيل، ونوح، ويوسف، وإبراهيم، وأهل الكهف، وبنو إسرائيل، وقارون ...إلخ.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا محاولات جادة قام بها بعض كبار الكتاب الذين عالجوا في تمثيلياتهم موضوعات من التراث العربي والإسلامي مثل أحمد شوقي ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير، ومحمود تيمور وعزيز أباظة وعبد الرحمن الشرقاوي.

ولا يسعني في هذا الصدد إلا أن أشير إلى ما كان بين الجماعات الإسلامية في مصر في الأربعينيات وبين النشاط التمثيلي من صلات قوية. فقد كان هذا النشاط بارزاً في بعض الجمعيات الإسلامية وبخاصة جمعية الشبان المسلمين، حيث كانت القيادات الإسلامية تشجع هذا التعاون وتباركه، إيمانا منها بأهمية الدور الذي يمكن أن يضطلع به التمثيل في مجال الدعوة. ولا أدل على هذه النظرة الواعية من الكلمة التي ألقاها الشيخ عبد الرحمن البنا الذي كان رائداً من رواد التمثيل الإسلامي بمسرحيته (المعز لدين الله الفاطمي) التي عرضت على مسرح دار الأوبرا، حيث قال في كلمته: «الأدب التمثيلي مدرسة عالية ومنبر يناديء من فوقه بأكرم المبادئ وأنبل الغايات». ويشير في كلمته إلى الإقبال الشديد الذي تلقاه الأفلام الدينية من الجماهير في أنحاء العالم.

وها هو ذا الشيخ أحمد الشرباصي الرائد الديني في جمعية الشبان المسلمين يتحدث بمناسبة عرض مسرحية (بطولة) في عام ١٩٦٠م فيقول في كلمته: «جماعة الشبان المسلمين للتمثيل تحيي النواحي التاريخية المجيدة في الإسلام، في محاولة لخدمة العقيدة الصحيحة». ثم يختتم الشيخ الشرباصي كلمته قائلا: «وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يحس فيه الناس جميعا هنا وهناك بالرسالة التي ينهض بها المسرح الإسلامي. وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يرى فيه أهل البصر والبصيرة أن من الواجب نحو العقيدة والإنسانية أن يعمم هذا التمثيل الإسلامي، وأن ينتشر ويذيع فيكون للقيم الرفيعة منبرا».

■ هذا الأدب التمثيلي المضلل، هذا السلاح الأمضى، ذو الحدين كأي علم، وكأي فن، ألم يحن الوقت لكي نعيده إلى كنف الدين فيكون له لا عليه؟

أسباب انقراض الأدب التمثيلي الإسلامي:

ولكن بكل أسف انحسر الأدب التمثيلي الإسلامي بعد أن أمده كبار الكتاب بإنتاجهم، وبعد أن حظي بتأييد العلماء المسلمين ورواد الجماعات الإسلامية. وفي رأيي

كان وراء ذلك الانحسار مجموعة من الأسباب العامة والمتداخلة التي تتعلق بكل من له علاقة بالحركة التمثيلية: المؤلف، والمخرج، والمسرح، والجمهور.

أولا: المؤلف:

قلة الكتاب في هذا المجال، الكاتب المؤمن، الموهوب، الدارس، ندرة الكاتب الذي يملك هذه الصفات الثلاث التي لا بد من توافرها في أي كاتب يريد أن يضطلع بمهمة التأليف للمسرح الإسلامي، والجمع بين هذه الصفات معادلة صعبة، والأسباب يمكن حصرها في الآتي:

- التراخي في بث الروح الدينية عند الناشيء الذي سوف يخرج من بينهم الكاتب في يوم من الأيام، ثم إهمال تعويض ذلك خلال سنوات الدراسة في المعاهد التي يتخصص فيها الفنانون بعد ذلك بحيث تزداد الهوة بينه وبين تراثه كلما تقدم في دراسته، وفي بعض الأحيان يبلغ الأمر به إلى التعالي على هذا التراث الأدبي والديني والتقليل من شأنه، وعدم الاهتمام بمعالجته أدبيا وفنيا باعتباره غير جدير بهذه المعالجة، والارتماء في أحضان الأساطير الأجنبية والموضوعات التي لا تمت إلى مجتمعاتنا بصلة. وحتى لو قدر له معالجة الموضوعات الإسلامية، فقد تأتي المعالجة مباشرة بحيث لا تختلف المسرحية عن القصة أو عن الخطبة الطويلة أو الدرس الأخلاقي، مما هو ليس من مهمة المسرح، فإذا الكاتب يُنَفِّر بدلا من أن يؤلف، ويبغّض بدلا من أن يحبّب.
- قلة العائد الذي تحققه مثل هذه التمثيليات على مستوى المادة وعلى مستوى الشهرة، ولا شك أن هذا الأمر مرتبط بما سبق أن ذكرنا عن ضعف التربية الدينية، فالكاتب المتدين – إن وجد – قربما يضحي بالمادة ويزهد في الشهرة.

ثانيا: المخرج والفنيون:

وما يقال عن الكاتب يقال أيضاً عن المخرج وغيره من الفنيين، فالمسرح اليوم ليس مسرح نص أو مسرح كاتب بقدر ما هو مسرح إخراج، فالدور الذي يقوم به المخرج اليوم من الضخامة بحيث يمكن أن نعد النص المسرحي مادة أولية، والمخرج هو الذي يشكلها بصورة قد تبتعد كثيراً عن النص الأصلي. وربما يوجد الكاتب الذي يريد – عن إيمان أو عن جدارة – أن يخوض تجربة التأليف للمسرح الإسلامي، لكنه قد يصطدم بالمخرج المتغرب الذي يسفه رأيه ويصرفه عن هدفه النبيل.

ثالثا: المسرح:

الشيء نفسه يقال أيضاً عن المسرح مبنى ومنصة، وبخاصة مدير المسرح، فقد يوجد الكاتب المطلوب والمخرج المطلوب، ثم تتحطم آمالهما على صخرة الجشع الذي يتمثل في مطامع مديري المسارح الذين لا يسعون عادة إلا إلى الكسب وتحقيق أكبر عائد من الدخل، بصرف النظر عن نوعية العمل الفني.

وهكذا، فإن التقاء هذا الثالوث الذي يتحلى بالصفات المطلوبة أمر نادر الحدوث أو هو معادلة صعبة، إن لم تكن مستحيلة، وحتى لو قدر لها أن تتحقق في غفلة من الزمن، فهناك الركن الرابع من هذا البناء، والذي لا يقوم إلا به، وأقصد به الجمهور.

رابعا: الجمهور:

ولا يغيب عنا أهمية هذا العنصر في نجاح العمل المسرحي، فالجمهور هو الحكم الأول والأخير وخاصة في مجتمعاتنا، والكاتب لا يكتب من فراغ، بل هو يجعل الجمهور نصب عينيه، وكذلك مدير المسرح، فالجمهور، ذلك الابن الذي تعود على التدليل، من الصعب أن تحوله عما تعود عليه من مسرحيات رخيصة تتفق وعواطفه الهابطة وتشبع غرائزه الرخيصة، ولا شك أن هذا الوضع راجع إلى السبب الأول وهو تربية النشء، بالإضافة إلى تسابق وسائل الإعلام الأخرى إلى الإسهام في فساد هذه التربية مما تفقد معه المناخ الصالح الخالص من الشوائب التي تفسد الأذواق وتؤثر في قبول الجماهير لمثل هذه الأعمال الجادة، يساعد على ذلك أيضاً وجود النوايا السيئة التي

لا يخدمها عرض هذه المسرحيات لأسباب سياسية أو سلطوية. وبذلك ينحط الذوق العام ويهبط الحس الفني عند الجماهير. فلا ترقى إلى المتعة الروحية التي توجد في هذه المسرحيات الهادفة. مفضلة عليها العروض الرخيصة التي لا تقدم إلا المتع الرخيصة الزائلة.

خامسا: الدولة:

أضيف إلى ما تقدم موقف الدولة.

ولعله كان في الإمكان التغلب على كل الصعوبات السابقة لو نبتت الدولة فكرة إقامة المسرح الإسلامي. فالدولة هي التي تملك إعداد وتكوين المؤلف المسلم بوسائل مختلفة. وفي مقدورها أن تعوضه عما يصيبه من الضرر المادي. وفي مقدورها أيضا أن تتدخل الشيء نفسه فيما يتعلق بالمخرج الصالح والفنيين المطلوبين. وفي مقدور الدولة أيضا أن توفر المسرح الملائم الذي يقبل عرض المسرحيات الإسلامية دون النظر إلى حصيلة الشباك. وبإمكان الدولة لا غيرها تجنيد وسائل الإعلام لتوفير المناخ الإسلامي الصالح.

إذن: فعملية إيجاد المسرح الإسلامي ليست مهمة فرد أو جماعة وإنما هي مسؤولية أمة. مسؤولية دولة تملك إمكانيات التنفيذ وتوفير أسباب النجاح.

>> بعث الأدب التمثيلي الإسلامي:

فإذا كنا جادين، ولا شك في ذلك لحظة، في حماية الأمة الإسلامية من تيارات الفساد المختلفة التي تحاول النيل منها. وإذا كانت هذه التيارات المفسدة تتفنن في التسلل إلى وسائل الإعلام المختلفة والسيطرة عليها بشتى الطرق وتجندها لبث سمومها في كل مكان. ولا سبيل إلى تجنبها لأنها أصبحت تختلط بالهواء الذي نتنفسه. فالمذياع، والفيديو والمجلات الفنية، والكمبيوتر والإنترنت إن لم تكن في كل بيت فهي تطاردنا حيثما كنا. وأصبحت تتفنن في استهواء كبيرنا قبل صغيرنا. أقول: إذا كان الوضع بهذه الصورة القاتمة. ألا يجدر بنا أن نتصدى لهذا التحدي الشيطاني بنفس الأسلحة التي يستعملها، ولا نكتفي بالشجب وبالنهي واللوم وغيرها من الوسائل المباشرة العاجزة التي لا تلائم روح العصر والتي تشبه السيف العتيق في معركة عصرية يستعمل فيها العدو اللدود كل مردود التكنولوجيا الحديثة؟

والشطر الثاني من السؤال هو: في أي بلد يمكن أن يتحقق ذلك؟ والإجابة الطبيعية الوحيدة هي: في المملكة العربية السعودية. فقد تتوافر الإمكانيات المادية والبشرية في بلاد أخرى. ولكن المملكة العربية السعودية تنفرد بعنصر مهم في الحركة المسرحية لا يوجد في سواها في الأمم. وهذا العنصر هو البيئة الإسلامية أو المناخ الديني الصالح لإنبات المسرح الإسلامي وترعرعه. فهناك الاتجاه العام للدولة المكرس لخدمة العقيدة الإسلامية. وهناك التوجيه العام لوسائل الإعلام نحو هذا الهدف المقدس. وهناك الاستعداد المتوافر عند الأفراد والجماعات لقبول التجربة المسرحية الجديدة. بل هناك التطلع المشوب باللهفة إلى هذه التجربة التي تهفو إليها القلوب جميعا. كما أنه ليس هناك ما يشوب هذا الاتجاه العام من تيارات معارضة لها مصالح مختلفة.

>> تصور مبدئي لما يمكن أن يكون عليه الأدب التمثيلي الإسلامي:

أولاً: في المدارس:

- إضافة مادة التمثيل إلى المقررات الدراسية لتصبح مثل مادة التربية الفنية والتربية الرياضية. ومن خلال هذه المادة يدرس بالإضافة إلى التمثيل وفنونه المختلفة من ديكور وماكياج. فن الإلقاء والخطابة.
- إقامة مسرح في كل مدرسة.
- تكوين فرقة للتمثيل بكل مدرسة تختار عروضها من بين الصفحات المجيدة في تاريخ العرب والمسلمين. وتكون في ذات الوقت حقلاً للتجارب المسرحية.
- تخصيص جوائز للمتفوقين في النشاط التمثيلي بمختلف فروعه.
- تنظيم مسابقات في التأليف المسرحي بين الطلاب وتخصيص جوائز مناسبة لها.
- تنظيم مسابقات في التمثيل بين فرق المدارس المختلفة وذلك في نهاية كل عام دراسي.

ثانياً: في الجامعات:

أولاً: في رأيي أن يكتفى مبدئياً بإنشاء فرع في قسم الإعلام أسوة بالإذاعة والصحافة. والاكتفاء في البداية بتدريس بعض المواد التي تُختار من بين التخصصات المختلفة (النقد – التمثيل – الإخراج – الديكور). وأقترح المواد الآتية:
- تاريخ الدراما، نصوص عربية، نصوص غربية، فن كتابة التمثيلية، التمثيل، الديكور، المناظر، الإخراج.

ثانياً: إنشاء فريق للتمثيل من بين العناصر الموهوبة يكون حقلاً للتجارب.

ثالثاً: تنظيم مسابقات في التأليف التمثيلي وتشجيع المتفوقين بالجوائز المالية وطبع التمثيليات الفائزة وتسهيل عرضها.

رابعاً: تبني العناصر الممتازة في التأليف والتمثيل والإخراج...إلخ. وإتاحة الفرصة لها للدراسة بالخارج.

خامساً: تنظيم بعثات قصيرة للمتفوقين إلى بعض الدول العربية لحضور دورات قصيرة في تخصصاتهم.

ثالثاً: على مستوى الدولة:

- إقامة قاعة للتمثيل في كل حي أو منطقة سكنية تصلح في ذات الوقت لإقامة الندوات وإلقاء المحاضرات وتنظيم المسابقات التمثيلية بين مدارس المنطقة وتقديم عروض الفنون الشعبية.
- تكوين فرقة تمثيلية قومية تمثل الدولة في المهرجانات العربية والإسلامية والدولية.
- إنشاء معهد للفنون التمثيلية للتخصصات المختلفة من تمثيل وإخراج ونقد وديكور... إلخ.
- تنظيم مسابقات في التأليف للتمثيل الإسلامي تخصص لها الجوائز.
- تنظيم مسابقات في تمثيل المسرحيات الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي.
- إصدار سلسلة متخصصة في التمثيل الديني بالإضافة إلى الدراسات الجادة في مجال الأدب التمثيلي الإسلامي.
- دعوة الفرق التمثيلية من البلاد العربية والإسلامية لتقديم عروضها الإسلامية.
- اختيار العناصر المتفوقة في فنون التمثيل المختلفة وإرسالها في بعثات قصيرة وطويلة للخارج.

وبعد، فإن الأدب التمثيلي، ذلك الابن الضال الذي حاول بعضهم، إيمانا منهم بأهمية دوره وخطورة تأثيره في الجماهير، أن يبعدوه عن أحضان الدين ويصرفوه عن دوره الأول الذي خلق من أجله، فجعلوا منه أداة من أدوات الفساد والانحراف، هذا الأدب التمثيلي المضلل، هذا السلاح الأمضى ذو الحدين كأي علم وكأي فن، ألم يحن الوقت بعد لكي نعيده إلى كنف الدين فيكون له لا عليه؟ ■